البواكير الأولى لترجمة النّص الفلسفي في العصرين الأموي والعباسي

د. علي سعد الله
جامعة ورقلة

الملخص:

يتناول هذا الموضوع، دراسة البدايات الأولى للترجمة، في الفكر العربي، وذلك في مرحلتين: مرحلة العصر الأموي، ومرحلة العصر العباسي. ففي المرحلة الأولى، تعرضت الدراسة إلى كيفية نشأة الترجمة، في فترتين:

الأولى: على يد خالد بن يزيد بن معاوية، الذي ترجم له راهباً يونانيا كتبا في الكيمياء والطب.

الثانية: تمت على يد عبد الله بن المقفع، الذي ترجم من اللغة الفارسية كتباً في العلوم الفلسفية، لأرسطو، ولفرفريوس الصوري، وخاصة كتابه إيساغوجي.

ثم انتقلت الدراسة إلى المرحلة الثانية، التي ازدهرت فيها الترجمة، في كل العلوم الفلسفية، وغير الفلسفية. وذلك بفضل تأسيس هارون الرشيد، لـ" بيت الحكمة" للترجمة، التي طورها بعده ابنه المأمون، وعين على إدارتها المترجم القدير:إسحاق بن حنين. واختتمت الدراسة، بتذييل وخاتمة، عالجتا مراحل تطور الترجمة، في الغرب الإسلامي، وفي جنوب أوروبا.

Résumé :

Le présent sujet traite les débuts de la traduction dans la pensée arabe à travers l'époque omeyyade et l'époque abbasside. Ainsi, dans la première étape, l'étude a examiné la genèse de la traduction qui s'est effectuée, en premier lieu, sous l'égide de Khalid ibn Yazid ibn Mouaouia à qui des livres scientifiques furent traduits par un moine grec. En second moment, elle s'est réalisée par Ibn Muqaffa qui traduisit des ouvrages de grands philosophes.

Ensuite, la recherche entame la deuxième époque dans laquelle la traduction prospère dans toutes les sciences; et ce grâce au fondement d'une école appelée « Bayt al-Hikma » par Harun al-Rachid qui était, par la suite, développée par son fils al-Mamun qui à son tour a désigné un notable traducteur à sa direction.

Cette étude est clôturée par un survol des étapes de développement de la traduction dans l'Ouest islamique et le Sud de l'Europe.

استهلال:

نشأت حركة الترجمة عموما، في الفكر العربي، لدواعي إنسانية، منها العبادة والصحة، واكتشاف المعرفة، والفضول العلمي. ففي العصر الجاهلي، مثلا، كانت هناك: "نقول تامة أو جزئية من التوراة والإنجيل، الموجودين بأيدي الناس"[1] في شبه الجزيرة العربية. كما أن العلاقات التجارية بين مكة والشام، كانت قائمة منذ القديم، بدليل ممارسة الرسول (ص) لها. كما أن تلك العلاقات، قد مورست بين العرب والحبشة، وبين العرب والفرس. فالأحباش قد احتلوا اليمن، ووصولهم مكة أكده القرآن[2] . فقد حاول أبرهة الأشرم، ملك اليمن (الحبشي) هدم الكعبة في مكة بواسطة الفيلة، عام 570م، وهو العام الذي ولد فيه الرسول (ص).

أما الفرس، فإن كسرى أنو شروان (531–579م)، الساساني، قد استولى على اليمن، في نفس عام 570م. وهكذا كان اليمن، ولايزال، مجالاً حيوياً، وآفاقيا للسياسات الدولية، وتحديداً للاقتصاد الحبشي والفارسي. ومن ثم فمن المؤكد أن العلاقات الاقتصادية والتجارية بين الحبشة وسكان شبه الجزيرة العربية، وبينهم وبين الفرس، تحتاج إلى التوثيق، ومعرفة كل قوم لغة الآخر، بطريق ممارسة الترجمة لوثائق المعاملات الإدارية والسياسية، كالمفاوضات، وكذا في المبادلات الاقتصادية والتجارية.

وفي بداية البعثة النبوية، كان أهل الكتاب —حسب رواية أبي هريرة– "يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام"[3]، لأن "التفسير" في النص هو من معاني الترجمة، في القديم، وكذلك "الشرح"[4]، أي أن العرب كانوا يترجمون النصوص التوراتية من العبرانية إلى العربية. وفي العصر الأموي، بدأ خالد بن يزيد بن معاوية، بترجمة كتب الكيمياء، والطب،

---

[1]– عمر فروخ: الفكر العربي، ص127، دار العلم للملايين، بيروت، 1966/1386.

[2]– الفيل / 1.

[3]– عبد الحميد مدكور: بواكير حركة الترجمة في الإسلام، ص ص43–44، دار السلام، ط1، القاهرة، 2009/1430.

[4]– راجع: نفسه، ص 60/ هامش 03.

لدواعي مادية، ثم ترجمت نصوص فلسفية، من طرف عبد الله بن المقفع، لتلبية الفضول المعرفي، كما سيأتي البيان.

النص الفلسفي في العصر الأموي

عرفت حركة نقل النص الفلسفي، في الفكر العربي، تطورات متتابعة، وموجات متعاقبة، منذ العصر الأموي (41–132هـ)، وهو العصر الذي نشأت فيه ترجمة النص الفلسفي.[1]

ويمكن إجمال تلك التطورات، في هذا العصر، على الوجه الآتي:

فقد نشأت حركة الترجمة، في الفكر العربي، على يد خالد بن يزيد بن معاوية (85–هـ/704م) في النصف الثاني من القرن الأول للهجرة.[2] فعند ما فشل خالد بن يزيد، في الوصول إلى كرسي الخلافة، تحوّل إلى طلب المعرفة، ودراسة العلوم، مما جعله يستدعي راهباً يونانياً، من مدينة الإسكندرية، اسمه: "مريانوس"، وطلب منه نقل كتب الكيمياء والطب، إلى اللغة العربية.

وهكذا، ظهر إبان هذا العصر، لأول مرة، نقل النص الفلسفي، في الفكر العربي، عندما ترجم عبد الله بن المقفع (ت142هـ/759م): "بعض كتب أرسطو في المنطق، ثم كتاب ايساغوجي[3] لفرفريوس (الصوري) وشيء من الطب (من اللغة الفارسية) إلى اللغة العربية.

---

[1]– نؤكد أننا لا نعني أن نقل المعارف، قد بدأت في هذا العصر، فالذي بدأ في هذا العصر (الأموي) هو نقل النص الفلسفي. أما الترجمات، والنقولات، غير العلمية، كتعريب بعض الوثائق والنصوص، ونقلها إلى العربية، فكان موجوداً في العصر الجاهلي.لأن العلاقات السياسية والاقتصادية بين العرب والفرس، والعرب والحبشة، والعرب والروم، كانت قائمة، بحكم الجوار. ضف إلى ذلك، أن هناك نقول (معربة) قد تمت في الجاهلية، لأجزاء من التوراة، والإنجيل، كان الناس يتداولونها في شبه الجزيرة العربية.–كما سبقت الإشارة–.

راجع: فروخ: الفكر العربي، مرجع سابق، ص127.

[2]– راجع نفس المرجع والصفحة،

[3]– كتاب ايساغوجي (أي المدخل باليونانية) هو كتاب في المنطق، وهو معروف أيضاً باسم:"المقولات الخمس". وأما مؤلفه فرفريوس الصوري، فهو تلميذ أفلوطين– PLOTIN، المصري الذي ولد في أسيوط (204–270م). وهو صاحب

ولكن لعل هناك رجلا آخر اسمه عبد الله بن المقفع (بن ساويرس) نقل كتب الفلسفة والمنطق والطب، التي ينسب نقلها وهماً، إلى عبد الله بن المقفع، صاحب كتاب كليلة ودمنة" .[1]

فمما لا شك فيه أن العصر الأموي، وإن تميز بترجمة النص الفلسفي، قد تميز كذلك بأمرين هامين:

أولا: أن النص الفلسفي اليوناني، في هذا العصر، لم يترجم مباشرة من اليونانية، إلى العربية، وإنما ترجم من الفارسية إلى العربية، مما قد يعني أن ابن المقفع، لم يكن متمكناً من اللغة اليونانية.

نظرية "الفيض"، في نشأة الكون، وهي النظرية التي تأثر بها الفارابي، وابن سيناء، وكذا إخوان الصفاء وخلان الوفاء، في القرن العاشر الميلادي.

[1]- نفسه، ص128. على أن المتفحص في هذا النص، يمكن أن يرصد حوله الملاحظات الآتية:

1- وجود تشابه في اسمين، يحمل كل منهما لقب ابن المقفع، إلا أن المنجد في الأعلام، يؤكد بخصوص الاسم الثاني في النص، أنه:"ابن المقفع ساوريس [هكذا بدون (عبد الله) وبدون (بن)] كاتب قبطي عاش في أواخر القرن العاشر. أسقف الأشمونين. من مؤلفاته: تاريخ بطارقة الإسكندرية".لكن صاحب النص يورد اسم الكاتب القبطي، هكذا: " عبد الله بن المقفع(بن ساوريس)" [بزيادة (عبد الله) و(بن)] على خلاف ما يوجد في المنجد في الأعلام. ثم يشك صاحب النص، في أن ترجمة كتب الفلسفة، والمنطق والطب، تكون قد نُسبت وهماً إلى عبد الله بن المقفع، صاحب كتاب كليلة ودمنة.

2- طالما أن كتب الفلسفة والمنطق والطب، قد ترجمت من اللغة الفارسية، فالراجح أن عبد الله بن المقفع، الفارسي الأصل، يكون هو الذي ترجم تلك الكتب. أما ابن المقفع ساوريس، فلم تذكر المصادر-حسب إطلاعنا- لا اللغة التي ترجم منها، ولا كتبا ترجمها، ولا أنه من المترجمين.

3- إن عبد الله بن المقفع، ليس صاحب كليلة ودمنة، وإنما هو مترجمه من الفهلوية (الهندية)، أما صاحب الكتاب ومؤلفه، فهو بيدبا، كبير حكماء الهند.

راجع: بخصوص ابن المقفع ساوريس: المنجد في الأعلام، ص14، ط16، دار المشرق، بيروت، 1988.

ثانيا: أن الأفراد في هذا العصر، هم الذين كانوا يقومون بالترجمة، من تلقاء أنفسهم، إما لرغبة منهم في التعريف بأنفسهم، وإما لغرض علمي، بإفادة جمهور المجتمع العربي–الإسلامي بالمعارف الإنسانية، وإما لأغراض أخرى.

في هذا الخصوص، يمكن أن نلاحظ بأن الترجمة في العصر الأموي، قد اقتصرت على علوم الكيمياء والطب والفلسفة، دون أن تتوسع لتشمل تخصصات علمية أخرى. ويبدو أن ذلك يعتبر أمراً طبيعياً، لأسباب منها:

1- أن التطور التدريجي في وجود الظواهر، أمر منطقي، ولذلك فإن ظاهرة الترجمة، لم تنشأ كاملة منذ البداية، وإنما انتقلت بالتدريج من الضعف إلى الكمال.

2- أن البدايات الأولى لظاهرة الترجمة، في الفكر العربي–الإسلامي، من الطبيعي أن تلاقي معارضات من الرافضين لما هو دخيل على الثقافة العربية–الإسلامية. وفي هذا المعنى، أشار جلال الدين الأسيوطي (1445–1505م) في معرض حديثه عن الترجمة، في كتابه "صون المنطق"، إلى المعارضات التي واجهت حركة الترجمة، والتي كانت من الأسباب التي عرقلت وأخرت انتشار العلوم والمعارف بين المسلمين، في هذا العصر قائلاً: «لِما (بكسر اللام) كان السلف يمنعون من الخوض فيها»[1]، أي: في الترجمة.

3- من الطريف أن نقرأ، في هذا الصدد، أن الخليفة عمر بن عبد العزيز (ت99هـ/717م) كان يتردد كثيراً في أن يسمح لنفسه بالترخيص للناس للاستفادة من كتاب مترجم في الطب، إلا بعد "استخارة الله تعالى أربعين يوماً"[2]. لأن الخليفة يعلم أن الناس قد يعارضون محتوى الكتاب الذي قد يضرّ بالعقيدة، مع أن الكتاب في الطب، إلا أن مترجمه من أصول إسرائيلية، وهو الطبيب "ماسرجويه". ويدلنا تحفظ الخليفة، وتردّده في نشر الكتب المترجمة، على حجم الصعوبات التي رافقت هذا العصر، وعلى حساسية ترجمة النصوص الأجنبية، فيه، وخاصة في بداياته الأولى.

---

[1]– جلال الدين الأسيوطي: صون المنطق (45/1)، نقلاً عن: مدكور، بواكير حركة الترجمة، مرجع سابق، ص117.

[2]– نفسه، ص 117.

ذلك أن فترة الصدر الأول للإسلام–القرن الأول للهجرة–كانت تعجّ بعقائد المشركين، وخاصة بالفكر الغنوصي (الثنوي) الذي يعتقد في وجود إلهين: إله للنور، وإله للظلام، عند المانوية والمزدكية، والمندائية والديصانية، والزرادشتية، وغيرها، وهي العقيدة التي اعتنقها زعيم مكة: أبو سفيان بن حرب–وغيره–قبل فتحها في القرن التاسع للهجرة. لذلك كان الخلفاء في هذا العصر، والنخب من الصحابة والتابعين، يتوجسون خيفة من تسلل مثل هذه العقائد، بطريق الترجمة للنصوص والكتب الأجنبية، إلى العقيدة الإسلامية، التي يكافحون لحمايتها.

وهكذا، فإن هذه الأسباب، وغيرها، هي بالضبط، التي تبرّر "استخارة" الخليفة عمر بن عبد العزيز، في نشر ترجمة كتاب الطب. وهي نفس الأسباب أيضاً التي أخّرت فتح سوق الترجمة، في هذا العصر، حتى مجيء العصر العباسي.

4– لقد كانت العقيدة الجديدة للإسلام، في العصر الأموي، لا تزال في طور النشوء والتوسع، والدفاع عن نفسها، رغم فتن الصدر الأول: كاغتيال عمر وعثمان، وعلي، وحروب الردة، وفتنة صفين والجمل. كما كانت الفتوحات قائمة – وقتئذ– في العراق والشام، وكان الصراع مع خصوم الإسلام، من فرس وروم، لم يتوقف.

ومن الملاحظ أن اغتيال ابن المقفع، المشهور بترجمته كتاب: "كليلة ودمنة"، يعد – رغم إسلامه – من أعلام المذهب الغنوصي (المجوسي) القائل بوجود إلهين: إله للنور، وإله للظلام، فقد: "كتب كتاب (الدرة اليتيمة في معارضة القرآن)"[1]، وهذا التأليف– ربما – هو الذي قتل مؤلفه، وقتئذٍ، لخوف المسلمين على عقيدة الإسلام من التشويه والتحريف. إضافة إلى أن عملية اغتيال المؤلف، تعكس عنف الصراع بين عقيدة الإسلام وعقيدة الغنوص.

ومن المؤكد أن اغتيال ابن المقفع –كما تشير المصادر – تم في البصرة من طرف الوالي، بأمر من الخليفة العباسي: المهدي، الذي قال :" ما وجدت كتاب زندقة، إلا وأصله

[1]– علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي، ج1، ص222، ط1، دار السلام، القاهرة، 2008/1429.

ابن المقفع"[1]. ومن المعروف أن ابن المقفع، ضمّن كتاب كليلة ودمنة:" باب برزويه، وهذا الباب من أخطر الأبواب، في نقد الأديان عامة، يتكلم عن تعارض الأديان، وعن عدم التوصل إلى اليقين فيها. بينما يعتبر العقل وحده، أعظم وسيلة وأفضلها للمعرفة. كان ابن المقفع يرمي إلى نشر الإلحاد والتحلل من الإسلام بالذات"[2]

ومما لا ريب فيه، أن ابن المقفع قد عاش مخضرماً في عصرين: العصر الأموي، وهو العصر الذي راقب بشدة ترجمة المؤلفات الأجنبية، ثم العصر العباسي الذي انفتح على ترجمة الثقافات الأخرى. وهو الذي اغتيل فيه ابن المقفع. مما يوحي بأن ابن المقفع، قد أحجم عن التأليف في معارضة القرآن، في العصر الأموي، لأنه كان مراقباً. ولما قامت دولة بني العباس، استغل انفتاحها وتسامحها في ترجمة العلوم الأجنبية، فأظهر حينها معتقداته المجوسية، وألف كتابه في معارضة القرآن، كما سبقت الإشارة.

في هذا الجو المفعم بالشعور بالخطر من الثقافات الأجنبية، يمكن القول بأن العرب لم يتفرغوا، بعد، في هذا العصر للتفكير في الترجمة. لأن التفكير في نقل التراث الفكري لغير المسلمين، للاستفادة منه، يتطلب أن تكون مقوّمات المجتمع العربي، الجديد، مؤسسة وقائمة، وعلى الأخص مقومات الدفاع والأمن والاستقرار، والتوازن الطبقي والاقتصادي، ووجود إطارات وكفاءات مثقفة، يمكن لها أن تقوم بمهمة الترجمة، في جوّ مُفعمٍ بالشعور بالثقة وحرية التعبير.

5- تتشابه، أو تتوافق نشأة الترجمة، وعلم الكلام، في العصر الأموي، من ثلاث جوانب، على الأقل، وهي:

أولا: أنهما نشآ في زمن واحد، وهو أواخر القرن الأول للهجرة، وفي عصر الحسن البصري (ت110هـ)، تحديداً.

---

[1]- راجع نفس المرجع والصفحة.

[2]- راجع نفس المرجع والصفحة.

إن الترجمة – باتفاق المصادر – نشأت على يد خالد بن يزيد بن معاوية (ت85هـ) الذي استدعى راهبا يونانيا من الإسكندرية، لينقل له كتباً في الكيمياء والطب. ثم عبد الله بن المقفع (699–759م) الذي ترجم، لأول مرة، كتباً فلسفية، من الفارسية، كما سبق التفصيل.

أما علم الكلام، فقد نشأ في نفس الفترة، بسبب المساجلات العقدية التي جرت بين يوحنا الدمشقي، وبعض المسلمين، وبين القدرية والجهمية، والجبرية. ثم على يد واصل بن عطاء، رأس المعتزلة، الذي ولد في البصرة، في النصف الثاني من القرن الأول للهجرة، وتوفي عام (131هـ).

ثانيا: كل من الترجمة وعلم الكلام، وَصَلاَ القمة في الازدهار في العصر العباسي، عند تأسيس الرشيد والمأمون، مدرسة "بيت الحكمة" للترجمة، مما يدل على تأثر علم الكلام، بترجمة النصوص الفلسفية، في هذا العصر.

ثالثا: كل من الترجمة وعلم الكلام، قد لاقى معارضة شديدة عند نشوئه، لأسباب منها:

1- انشغال الناس بالفتوحات، وانصراف هممهم لنشر الدعوة للدين الجديد، انتصارا للإسلام، لكن بعد انصراف المسلمين من ساحات القتال، واستقرارهم، قد فكروا في ترجمة المعارف الأجنبية، وتدوينها، ثم أخذوا يستفيدون منها، وعلى رأسهم علماء المعتزلة.

2- غيرة المسلمين على الدين، وحماية لعقيدتهم، في هذه الفترة، جعلهم يتحفظون من الاحتكاك بعقائد المشركين الوثنية، وذلك بتأجيل ترجمة المعارف الأجنبية إلى اللغة العربية، إلى وقت آخر. وما نظرية التوفيق بين الدين والحكمة (الفلسفة) عند الأشاعرة وابن رشد، وغيرهم، إلا نتيجة للمعارضات الصادمة للمفكرين، التي تصدر – غالباً – من الفقهاء والساسة المتحفظين من ترجمات العلوم والثقافات الأجنبية.

3- لأن اتصال المسلمين، بأهل الكتاب، أثار بينهما جدالات وحوارات، حول طبيعة عقيدة كل منهما. فكان ذلك الاتصال والاحتكاك بينهما في صالح ظهور علم الكلام، والترجمة معاً، في هذه الفترة.

وللتمثيل على ذلك، نورد النص الآتي–على طوله–:

"فزع رجل دين مسيحي من انتشار الإسلام، وهو القديس يوحنا الدمشقي (675–749م) حفيد منصور بن سرجون، أحد رجالات بلاط معاوية بن أبي سفيان (41–60هـ/661–630م) وكان أباه قد خلف أباه على بيت المال في خلافة هشام بن عبد الملك، وهو أول رجل دين صنف كتبا في الدفاع عن عقيدته، بينها: "محاورة مسلم" و"إرشادات النصارى في جدال المسلمين" وكتاب: "منبع العلم"، وفيه بحث عن الفرق والمذاهب. وكتاب: "حياة محمد"، ولعله كان أول من كتب في هذا الصدد من وجهة نظر النصارى، كما أنه يعد أول من يستخدم (علم الكلام–théology) في أجوبته على الأسئلة التي أثارها، فأحدث ما يسمى: Dialgue ، أي فن الحوار، وقد اصطدم الرجل في جدال عنيف مع المسلمين حول وحدة الله، وطبيعة الكلمة. وقد قصد هذا الدمشقي في تصانيفه بيان كيفية مجادلة المسلمين في المسائل الخلافية، ولتوجيه أهل دينه، للدفاع عن عقيدتهم، وإبراز أو اختلاف– الجوانب السيئة فيهم."

"(...) وفي جملة ما قاله يوحنا الدمشقي: يتهم المسلمون النصارى بعبادة التماثيل (الأيقونات–Icons) المصنوعة من الحجارة والخشب، مع أنهم هم أنفسهم يقبّلون الحجر الأسود، ويتقربون إليه، وهم في عملهم هذا، لا يختلفون عن النصارى في تقبيلهم التماثيل والصليب".[1]

يستخلص من هذا النص، أن اختلاط المسلمين بغيرهم في الشام، حرك العقول في هذه الفترة، ودفع الطرفين، إلى التعرف على ثقافة وعقائد بعضهم البعض. ومن ثم فمن الطبيعي أن تظهر حساسيات بين الغالب والمغلوب — بلغة ابن خلدون — وخاصة عند أهل الذمة، لشعور المغلوب بالنقص، وبالتبعية لغيره.

[1]– محسن محمد حسين: الإستشراق برؤية شرقية، ص ص39–41، ط1، شركة بيت الوراق، بغداد، 2011.

ومن اللافت للنظر، أن موقف يوحنا الدمشقي، المعارض لمبدأ التوحيد الإلهي، يتميز بالجرأة والتحدي لعقيدة المسلمين، رغم أنه كان مسؤول بيت مالهم، في دولتهم. وهذا إن دل على شيء فهو يدل على قوة موقعه ونفوذه في الدولة الأموية، بما أنه استطاع الطعن في الإسلام – سراً، لا جهراً – لأنه في مؤلفاته باللغة اليونانية: "نسب الإسلام إلى الهرطقة، وادعى أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخذ تعاليمه من رجل من أهل الكتاب، أو من رجل من الهراطقة الأريوسيين[1]، ممن يعتقدون أن المسيح ليس من جوهر الأب، أي: الله"[2]

ولئن أكد النصان السابقان، تسامح المسلمين، في العصر الأموي، مع أهل الذمة وعدم تسامح الأمويين مع الشيعة والخوارج، فإنهما أكدا كذلك بعض الأسباب في ظهور علم الكلام، باعتماد يوحنا الدمشقي على فهم عقائد الإسلام، وتأليف كتبه، استنادا إلى ترجمات لآيات من القرآن، وإلى نصوص من أحكامه.

ومن الملاحظ أن يوحنا الدمشقي، قد استطاع أن يتمكن من تعلم ثلاث لغات، هي السريانية (لغته الأصلية)، والعربية، ثم اليونانية. فكان يترجم النصوص، من وإلى هذه اللغات. كما استطاع أن يلم بعقائد النصرانية (عقيدته الأصلية)، والنسطورية، واليعقوبية، وأن يؤلف عدة كتب في اللاهوت والفلسفة، أبرزها كتاب "محاورة مسلم"–كما سبقت الإشارة –. بالإضافة إلى الكتب الآتية: "ينبوع المعرفة"، أو العلم، و"المقدمة في العقائد والإيمان الحق"، و"الثالث الأقدس"، و"إيضاح الإيمان". ثم: "انبرى يحارب الهراطقة المتمسكين بفلسفة أرسطو. وقد وفق إلى إصلاح بعض نظريات أرسطو، ولاسيما فيما يتعلق باللاهوت الطبيعي، وعلم الأخلاق، وخلود النفس. وأخذ عن أرسطو كثيرا من التحديدات، ولكنه

[1]– أريوس: أحد كهنة الإسكندرية، عاش في القرن الرابع الميلادي، رفض أن يكون عيسى عليه السلام، إبناً لله. وانتشر مذهبه عند القوط واللمبارديين، وطرده أو (حرمه) من المسيحية عقابا على آرائه، مجمع قينية الكنسي، سنة 325م.

[2]– نفسه، ص41.

أضاف إليها أشياء وأشياء، كالفرق بين الطبيعة والجوهر والأقنوم، واستعان بها على إنشاء تعابير خاصة بعلم اللاهوت، مستقلة عن المذاهب الفلسفية العديدة".[1]

إضافة إلى ذلك، فقد استطاع يوحنا أن يتعلم اليونانية، على يد راهب إيطالي، أسره المسلمون، اسمه "قوزما"، الذي: "أحضر لدمشق، فأخذ عنه يوحنا اللغة اليونانية، وآدابها والعلوم الفلسفية، والموسيقى"[2].

في هذا المعنى، تشير المصادر إلى أن المؤلف الرئيسي ليوحنا الدمشقي، هو كتاب: ينبوع المعرفة، أو العلم، الذي ألفه باليونانية – كما يدل السياق – وضمنه طعونا في الإسلام، خشية أن يطلع المسلمون عليها، باعتباره من كبار موظفي دولتهم – كما سبق البيان–.

ومما يستخلص من التوثيقات السابقة، أن الترجمة قد راج سوقها، في البلاط الأموي. فقد تحكم في سوق حركة الترجمة، وقتئذٍ، ثلاثة نشطاء: الأول هو الراهب اليوناني: مريانوس، الذي استدعي من الإسكندرية، بغرض الترجمة. والثاني هو إبن المقفع، الذي ترجم – بمفرده– كتباً لأرسطو، ولفرفريوس الصوري. أما الثالث فهو يوحنا الدمشقي، الذي كان يعجّم لقومه النصوص المتضمنة أحكام الشريعة، إلى السريانية واليونانية، كما كان يعرب للمسلمين، آراء السريان، واليونان، مما كان له الأثر العميق، في نشأة المدارس الفكرية – الكلامية الأولى، في المجتمع الإسلامي الأول، كالقدرية، والجهمية، والجبرية، والمرجئة. وهو ما يدل بوضوح، على عمق الصلات والروابط بين ثلاثة علوم، هي: علم الترجمة، وعلم الكلام، وعلم الاستشراق.

---

[1]– أسد رستم: كنيسة مدينة الله، ج2. نقلاً عن: خليل داود الزرو: الحياة العلمية في الشام، في القرنين الأول والثاني للهجرة، ص124، ط1، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1971.

[2]– نفسه، ص123.

النص الفلسفي في العصر العباسي

عندما نتعرض لدراسة الفترة الثانية، لحركة الترجمة في الفكر العربي، يواجهنا أمران جليلان، وقعا في العصر العباسي: الأول هو إنشاء مدرسة "بيت الحكمة"، للترجمة. والثاني، هو سقوط بغداد، عام 656هـ/1258م، على يد هولاكو (1217–1265)[1]

على أن الأمر الثاني، لا يهمنا في هذه الدراسة، إلا من حيث معرفة مصير خزائن الكتب، التي ألفت وترجمت في الفلسفة والعلوم، ومنها الكتب الفلسفية التي ترجمها عبد الله بن المقفع من اللغة الفارسية، إلى اللغة العربية، في الفترة الأولى للترجمة، كما سبقت الإشارة. وبما أن هذه الكتب مفقودة، فمن المفيد أن يعرف القارئ، كيف فقدت؟

ففي هذا الصدد، تؤكد المصادر، أن خزائن الكتب قد دمرت على يد المغول، عندما احتلوا بغداد (1258)، واستباحوا كل شيء فيها. فقاموا بإتلاف تلك الخزائن، بإلقائها في نهري دجلة والفرات، حتى تغير لون مياه النهرين، وأصبح يضرب إلى السواد. وتعرف هاته الواقعة في التاريخ: "بنهب بغداد". وهي الواقعة التي طمست كنوز الثقافة والعلوم، ومعالم الحضارة الإسلامية، والدولة العباسية نفسها من الوجود، بقتل الخليفة المستعصم،

أما الأمر الأول، وهو إنشاء مدرسة "بيت الحكمة" للترجمة، فقد وضع هارون الرشيد، النواة الأولى للمدرسة، ثم طورها ابنه المأمون. فجلب لها المخطوطات اليونانية، من جزيرة قبرص، ومن مدن بيزنطية، وعين عليها مترجمين أكفاء، على رأسهم حنين بن إسحاق، وكلفهم بترجمة الكتب الفلسفية، والعلمية، مشجعاً بذلك نشر الثقافة والمعرفة بين أفراد الطبقات الاجتماعية.

ومما يلاحظ في هذا الخصوص، أن حركة الترجمة، كانت في العصر الأموي، يقوم بها الأفراد، من تلقاء أنفسهم، بينما أصبحت تلك الحركة في العصر العباسي، تحت رعاية

[1]– أسس هولاكو، المغولي – حفيد جنكيز خان – دولة المغول في إيران، عام 1251م، ولما حاول هولاكو احتلال مصر، قضى عليه جيش المماليك في عين جالوت، بين فلسطين والأردن، عام 1260م.

الدولة: فالدولة هي التي تشرف على الترجمة، بأن أسست لها مدرسة، وعينت فيها المترجمين، وقامت بتمويل عمليات شراء الكتب والمخطوطات، من بيت المال العام.

وهكذا، فقد عمد المأمون – بعد أن وطّد دعائم مدرسة بيت الحكمة –، إلى تشكيل مجموعة من العلماء المترجمين، وكلفهم بإدارة المدرسة، والإشراف على الترجمة. ونذكر من أولئك العلماء:

أولاً: يوحنا بن ماسويه/الترجمان (توفي نحو 857م)، وهو طبيب سرياني، من مدرسة الإسكندرية، مترجم من اليونانية إلى العربية، ومؤلف لكتب بالعربية. جاء بغداد، فولاه المأمون رئاسة "بيت الحكمة" عام 830م. ويلاحظ أن مدرسة الإسكندرية، قد جمعت طائفة من أعلام الطب والفلسفة، وأعتنت بترجمة المؤلفات الطبية اليونانية، في القرنين السابع والثامن للميلاد، كما أهتمت على الخصوص بشرح ودراسة مؤلفات أبقراط، وجالينوس، الطبية.[1]

ثانياً: حنين بن إسحاق (808–873 م) "شيخ المترجمين"، الذي تتلمذ على يوحنا بن ماسويه، وترأس بعده مدرسة "بيت الحكمة"، باعتباره من أبرز المترجمين، بالإضافة إلى أنه:" يحمل أربع ثقافات: العربية، والسريانية، والفارسية، واليونانية. فامتزجت فيه الذهنيات المتداخلة، وكان بحق أبرز ممثل لهذه الحركة الفكرية في عصره"[2]. وقد اختص حنين بترجمة المؤلفات الفلسفية والطبية. ويظهر ذلك في تأكيد جورج سارطون، بأن حنين بن إسحاق، أعاد ترجمة محاورة طيماوس، لأفلاطون، في أواخر القرن التاسع الميلادي – وهو عصر الفارابي – مصححاً بذلك ترجمة يحي بن البطريق، "الحرفية"، لطيماوس[3] وهو ما يدل على تمكنه من الترجمة "بالمعنى"، وتحكمه في اللغة اليونانية.

---

[1]– راجع: أميرة حلمي مطر: الفكر الإسلامي وتراث اليونان، ص ص 72–76، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2010.

[2]– كمال اليازجي وأنطون كرم: أعلام الفلسفة العربية، ص89، ط3، دار المكشوف، بيروت، 1968.

[3]– راجع: جورج سارطون: تاريخ العلم، ج3، ترجمة توفيق الطويل (وآخرون)، ص ص70–71، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1970.

ثالثاً: ثابت بن قرة (836–901م) الذي كان عارفاً بثلاث لغات، هي: السريانية، واليونانية، والعبرية. وقد ترجم في بيت الحكمة، كتب المنطق والرياضيات، والطب والفلك.

رابعاً: قسطا بن لوقا (820–912م). الذي كان يتقن العربية والسريانية، واليونانية، كما كان موسوعياً، ترجم وألف في الفلسفة، منها: كتاب المدخل إلى المنطق، وكتباً أخرى في العلوم.

خامساً: يحي بن عدي (893–974م)، الذي تتلمذ على الفارابي، وكان من علماء المنطق، اختص في ترجمة الكتب الفلسفية، فترجم كتاب أرسطو، في الشعر، والمقولات وما بعد الطبيعة، كما ترجم محاورة السفسطائي، ومحاورة طيماوس، وكتاب القوانين، لأفلاطون.

يتبين لنا من خلال هذا النشاط المنظم، لترجمة النص الفلسفي، في مدرسة " بيت الحكمة"، أن فترة العصر العباسي، عرفت نهضة لا مثيل لها في العالم –عهدئذٍ –، في المجال الثقافي والعلمي. فقد ازدهر في هذه الفترة، كل من علم الترجمة، وعلم الكلام، وهو العلم الذي يقابل معناه: "كلمة منطق"[1]، التي تعني: التفكير العقلي، وبذلك نشأ التفكير العقلي، أو الفلسفي، في الحضارة العربية، متكئا على علمي: الترجمة وعلم الكلام. إذ أن " علم الكلام الذي تلبي ماهيته في الواقع، النزعات المتباينة لدى أكثر المواطنين عدداً في البيئة الإسلامية (...) يمثل الحركة الفلسفية الحقيقية في الإسلام"[2]

لكن إذا كان علم الكلام، يعتبر "حركة فلسفية حقيقية "، فإنه قد استفاد – وخاصة في العصر العباسي – من رافدين، على الأقل، هما:

1- من المعتقدات الثنوية، (القائلة بإلهين)، الدخيلة على الإسلام، والمتمثلة في حركات الفكر الغنوصي الفارسي، كالمزدكية والمانوية، وغيرهما كثير.[3]

2- من ترجمة النصوص الفلسفية (الأجنبية) إلى اللغة العربية.

---

[1]– عادل العوا: الكلام والفلسفة، ص14، ط3، مطبعة جامعة دمشق، 1965/1385.

[2]– نفسه، ص15.

[3]– راجع في هذا الخصوص، مثلاً: النشار: نشأة الفكر الفلسفي، ج1، الباب الثاني، الفصل الرابع، مرجع سابق، ص197، وما بعدها.

على هذا الأساس، فإن هناك بالتأكيد، صلة وثيقة، بين ترجمات النصوص العربية (المعجمة) – بما في ذلك نصوص القرآن – من جهة، وترجمات النصوص الأجنبية، الفلسفية، والعلمية (المعربة) من جهة أخرى.وآية ذلك، أن مدرسة " بيت الحكمة "، لم تكن تعرب النص الأجنبي، فقط، بل كانت، أحياناً، تعجّم النص العربي، أيضاً، لأن الواقفين على الترجمة في المدرسة، كانوا من أهل الذمة، وبالتالي، فإنهم يحتاجون إلى فهم نصوص الشريعة الإسلامية، والوثائق السياسية، لمعرفة طبيعة النظام الديني، والسياسي الإسلامي، الذي يحكمهم، كأهل ذمة، ومن ثم يضطرون إلى تعجيم نصوص من العربية، إلى لغتهم الأجنبية، إما لتلبية رغبة شخصية، وإما لتلبية رغبات أفراد من قومهم، ونمثل لذلك من وجهين:

الوجه الأول: قام يوحنا الدمشقي في القرن الثامن للميلاد، في العصر الأموي، بتأليف كتاب: "محاورة مسلم"، وكتاب: "إرشادات النصارى في جدال المسلمين"، وغيرهما من الكتب باللغة اليونانية – كما سبقت الإشارة – . وقد عجّم في كتبه نصوصاً من الشريعة، وتضمنت تلك الكتب طعوناً في الإسلام، وذلك بغرض تمكين قومه من فهم طبيعة الدين الإسلامي، وتحذيرهم منه. فكان يوحنا الدمشقي: "أول من يستخدم علم الكلام، في أجوبته عن الأسئلة التي أثارها فأحدث ما يسمى فن الحوار. وقد اصطدم الرجل في جدال عنيف مع المسلمين، حول وحدة الله، وطبيعة الكلمة"[1] فمن هذا النص، نستخلص الصلة القوية بين الترجمة، وعلم الكلام، في نشأتهما، وفي تطورهما في المجتمع العربي.

الوجه الثاني: أن أعلام الفكر العربي الأوائل، أمثال: الكندي، والفارابي، وإخوان الصفاء، وابن سينا، يمكن اعتبار إنتاجهم الفكري، قد تأثر بالترجمة، وعلم الكلام، معاً.

عوامل إزدهار الترجمة

أن العوامل التي ساهمت في تفعيل حركة الترجمة وازدهارها، في المرحلة العباسية، كثيرة، نورد منها ما يلي:

[1]– محسن حسين: الإستشراق، مرجع سابق، ص40.

1- الاستقرار النسبي[1]، الذي عرفه المجتمع العربي، في هذه الفترة، نتيجة للتوازنات الاجتماعية، والاقتصادية، التي حصلت بين طبقات المجتمع.

2- اختلاط المجتمع العربي، بالنخب المثقفة من أهل الذمة، إثر الفتوحات، سيما أن تلك النخب كانت تحمل ثقافات متنوعة، كثقافة السريان واليونان والعبرانيين. بدليل أن أعلام مدرسة "بيت الحكمة" كان أغلبهم يعرف ثلاث لغات، على الأقل، ويترجم منها إلى العربية، إضافة إلى معرفتهم للغة العربية.

ضف إلى ذلك أن أولئك الأعلام، كانوا على إطلاع واسع، ليس فقط بتفاصيل العقيدة المسيحية – لأن أغلبهم من معتنقيها – وإنما كانوا يعرفون أيضاً، أصول الفكر الغنوصي، وأسرار معتقداته، خاصة العقائد الغنوصية، التي قد تسربت إلى الثقافة العربية، وإلى الثقافة اليونانية نفسها، بطريق آراء "الأفلاطونية المحدثة"، التي أسسها أفلوطين PLOTIN (204–270م)[2]، فضلاً عن أن الفكر الغنوصي الذي نشأ وترعرع في فارس، قد تسلل أيضاً، إلى العقائد اليهودية، والمسيحية، على السواء، [3]

3- انتصار السلطة السياسية، الممثلة في الخلفاء، للعلم والمعرفة، بإقامة المؤسسات الثقافية، وتمويلها، وتشجيع العلماء على التأليف والترجمة.

4- انفتاح السلطة السياسية، على الثقافات الأجنبية، بتوظيف رجالها من أهل الذمة، في هياكل الدولة، ومؤسساتها، وخاصة في الترجمة والإدارة والجيش.

5- رغبة الخلفاء في اكتشاف العلوم والمعارف الأجنبية، لاستثمارها في تقوية أجهزة الدولة، لمواجهة الخصوم في الداخل والخارج.

إضافة:

[1]– نؤكد بأنه:" إستقرار نسبي"، لأن الجيش البيزنطي، كان يشن هجمات، من حين لآخر، ضد الدولة العباسية، مما يضطر الجيش العربي، إلى الرد عليه، والتصدي لعدوانه.

[2]– راجع: النشار: نشأة الفكر الفلسفي، ج1، مرجع سابق، ص 188، وما بعدها.

[3]– راجع: نفسه، ص 198، وما بعدها.

من اللافت، أن خلفاء بني العباس، وأعيانهم، عندما أنشأوا مشروع مدرسة " بيت الحكمة"، فكروا فقط في تعريب التراث الفكري الأجنبي، للاستفادة منه، فكريا وعلميا، ولم يفكروا في أن:" يترجموا حقائق الدين، وأحكامه السياسية والاجتماعية، ومبادئه الروحية والخلقية"[1]، لاستمالة غير المسلمين –وخاصة أهل الذمة –، إلى الإسلام، وثقافته، بما أن تعجيم مبادئه، كالقرآن مثلاً، وأصول الشريعة، والآداب العربية، كل ذلك يساعد على نشر الإسلام، ويساعد أيضاً غير المسلمين، على فهمه بالطرق العقلية، عملا بقوله تعالى:" وجادلهم بالتي هي أحسن"[2].

ويبدو أن منشئي مدرسة "بيت الحكمة" في بغداد، قد عملوا على الاستفادة من معارف وثقافة غيرهم، لأنها تهمهم وتنفعهم، اجتماعيا وعلميا، وهو أمر طبيعي، لكن غير الطبيعي، هو أنهم فهموا بأن معارف الإسلام، وثقافته، تعنيهم وحدهم، ولا تعني الآخرين، رغم أنهم لا يجهلون أن الإسلام رسالة عالمية، وأن الدعوة إليه، ممكنة بطريق التعجيم، والتواصل الثقافي. وبتعبير آخر، فإنه كان في استطاعة أعلام المترجمين، في "بيت الحكمة"، القيام بعمل مزدوج: وهو أن يعرّبوا ثقافة الآخرين للمسلمين، وأن يعجّموا ثقافة الإسلام، لغير المسلمين، في نفس الوقت. وبما أن تعجيم ثقافة الإسلام، وأحكامه، لم يتم في "بيت الحكمة"، بصفة رسمية، فإن ذلك قد يعود، برأينا، إلى تحفظ النافذين في السلطة السياسية، على التعجيم. لأنهم لم يأمروا به المترجمين. ربما اعتقادا منهم بأن التعجيم لأحكام الشريعة، يعرضها للتشويه والتحريف.

تذييل وخاتمة:

عرف مسار ترجمة النص الفلسفي، في الفكر العربي، وجهين: وجه اختص بالتعريب، ينقل النص الفلسفي، من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية. ووجه اختص بالتعجيم، ينقل النص الفلسفي العربي من اللغة العربية إلى اللاتينية والعبرية.

---

[1]– محمد الغزالي: سر تأخر العرب والمسلمين، ص41، دار الهناء، برج الكيفان/ الجزائر(؟).

[2]– النحل/125.

على أن الوجهين: التعريب والتعجيم، قد عرفا تطورات مختلفة، يمكن رصد حركتهما على النحو الآتي:

لقد نشأت الترجمة، إثر استعانة الخلفاء بالأعاجم، في المجال الإداري والثقافي. إلا أن ظاهرة الاستعانة بالأعاجم، لم تبرز في العصر الراشدي، وإنما برزت لأول مرة، في التاريخ العربي الإسلامي، في بداية العصر الأموي، لكي يؤدي الأعاجم دورين أساسيين، هما:

الأول: دور إداري – سياسي، غرضه تنظيم الإدارة، والاستشارة السياسية. وهو الدور الذي نشأ في عهد معاوية، الذي عين منصور سرجون، مستشاراً في بلاطه، بدمشق. ثم عين هشام بن عبد الملك، يوحنا الدمشقي – حفيد سرجون – على رأس بيت المال (وزارة المالية)، كما سبقت الإشارة. ثم توسعت الاستعانة بالأعاجم لتشمل مجالات عدة.

الثاني: دور ترجمي، لنقل المعارف الأجنبية، للإفادة منها، إلى اللغة العربية. وهو الدور الذي ظهر في الدولة العباسية، إثر تعيين الخلفاء، أعاجم للترجمة، وإدارة "بيت الحكمة". وتعيينهم كذلك وزراء من أسرة البرامكة الفارسية، ثم لأمراء وقادة للجيش من الأتراك، الذين سيطروا على الخلفاء، طيلة قرن من الزمن، مما أفضى إلى انقسام الدولة إلى ولايات، فضعفت وتهالكت، إلى أن جاء هولاكو المغولي، فقتل المستعصم، آخر الخلفاء، وقضى على الدولة، نهائياً، في 1258م. وبسبب ذلك، دخلت الترجمة في المشرق العربي، في غيبوبة، ولم تستيقظ منها إلا في القرن التاسع عشر للميلاد.

وهكذا يمكن القول، بأن مسار حركة ترجمة النص الفلسفي، قد انشطر، في أوائل القرن الثاني عشر للميلاد، –وهو عصر الغزالي – إلى فرعين: فرع في المشرق العربي، وفرع في الغرب الإسلامي.

فرع المشرق العربي:

هو الفرع الذي عرفت فيه حركة الترجمة، جموداً معيباً، طيلة سبعة قرون، تقريبا، (من القرن12 إلى القرن19م)، بسبب انحطاط العالم العربي الإسلامي في هذه الفترة. ثم نهض هذا الفرع، في عصر الانبعاث، في القرن 19م. وتخصص في التعريب. فبرز فيه مترجمون من

مفكري مصر، ولبنان: " ينقلون إلى العربية علوم الأجانب وآدابهم"[1]. فمنهم من اعتمد الترجمة "الحرفية"، وهم قلة، ومنهم من اعتمد منهج الترجمة "بالمعنى".

ففي هذا العصر، وفي مصر تحديداً، أنشأ محمد علي مؤسسة "المهندسخانة"، عام 1820. ثم أنشأ بعدها مدرسة الألسن (اللغات)، عام 1251هـ/1835م[2]، وتولى نظارتها الإصلاحي رفاعة الطهطاوي (1801–1873م). وقد تخصصت المدرسة في تدريس اللغات لطلابها، منها: الإنجليزية والفرنسية والإيطالية، والتركية والفارسية، إلى جانب تدريس التخصصات الآتية: الشريعة والتاريخ والجغرافيا، والجبر والهندسة.

إضافة إلى ذلك فإن الطهطاوي، فضلا عن توليه نظارة المدرسة، قام بتعريب كتب من الفرنسة، في العلوم والقانون. منها: كتاب مبادئ الهندسة، وكتاب القانون المدني الفرنسي.

وفي لبنان، قام سليمان البستاني، بتعريب إلياذة هوميروس، كما قام بولس عواد، بتعريب كتاب: الخلاصة اللاهوتية، للقديس توما الأكويني.

أما في القرن العشرين، فقد عرفت ترجمة النص الفلسفي، تطورا جديدا، وتقدما مطردا، في العالم العربي، وخاصة في مصر، التي أسست مدرسة للترجمة (مدرسة الألسن)، شبيهة ببيت الحكمة، لتعلم اللغات، يليها لبنان. وهما البلدان اللذان ازدهر فيهما علم الترجمة "بالمعنى"، ووصل حد النضج والكمال، في منتصف القرن، وذلك إثر تأسيس

---

[1]– جبران مسعود: المحيط في الأدب، ج2، ص679، ط4، دار المكشوف، بيروت، 1963.

[2]– على إثر تخرج الأجيال الأولى، من مدرسة الألسن، انطلقت النهضة العلمية في مصر، وعرفت تحولات متسارعة فأخذت تتقدم وتتوسع، في تشييد المعاهد العلمية، والمؤسسات الخاصة بالدراسات العليا، لتخريج الإطارات الكفأة، والنخب من العلماء والمفكرين، الأمر الذي أفضى، –بعد حملة شعبية وطنية–، إلى تأسيس كلية "دار العلوم" عام 1908، لدراسة الآداب واللغات والعلوم الإنسانية. وبعد أربعة عشر سنة، تحولت تلك الكلية، في 1924، إلى جامعة تدعى "الجامعة المصرية" (جامعة فؤاد)، التي دعيت "جامعة القاهرة"، بعد ثورة 1952.

راجع: مجلة "العربي"، ص 181، عدد 675، الكويت، فبراير 2015.

الجامعات، في أوائله، فأخذ أساتذتها على عاتقهم، مهمة التعريب من اللغات الأجنبية، لا في المجال الفلسفي، وحسب، وإنما في مجالي: الآداب والعلوم، أيضاً.

فرع الغرب الإسلامي:

نشأ هذا الفرع في الترجمة، في شمال الأندلس، بمدينة طليطلة – Tolédo –، في القرن السادس الهجري (من 1130– إلى 1150م)[1]، فكانت تلك المدينة أول مدرسة للترجمة في أوروبا، تشبه إلى حد كبير، مدرسة " بيت الحكمة" في بغداد، التي تخصصت في التعريب، بينما تخصصت مدرسة طليطلة في التعجيم، مع فارق آخر، وهو أن مدرسة بغداد، أشرفت عليها الدولة، بينما مدرسة طليطلة، أشرف عليها راهب مسيحي.

ففي القرن الثاني عشر للميلاد، عمد الأسقف ريموند – RYMOND، إلى تشكيل تجمع علمي، ضم خيرة المترجمين، وأنشأ لهم: " ما يشبه معهدا للترجمة، ذاعت شهرته، واجتذب إليه فطاحل المترجمين"[2]. فشرع هذا المعهد يعجّم المؤلفات الفلسفية العربية، بنقلها من اللغة العربية، إلى اللغتين: اللاتينية والعبرية، وخاصة مؤلفات أرسطو، وابن رشد، وغيره من الفلاسفة العرب. وبذلك انتقل النص الفلسفي اليوناني والعربي، في العصور الوسطى، إلى جنوب أوروبا، سيما انتقال ما يعرف في الفلسفة بالمذهب الأرسطي، والرشدية اللاتينية.

وبما أن مدرسة طليطلة لم تعمر طويلا، سوى مدة عشرين سنة، فقد تأسست فروع ومراكز أخرى للترجمة، في أوروبا، لنقل التراث اليوناني والعربي، وتخصصت تلك المراكز في تعجيم، مؤلفات كبار المفكرين في الحضارة العربية، من المشرق العربي والأندلس.

ففي مدينتي: بالرمو بصقلية، ونابلي، أسس الأمبراطور الجرماني، فريدريك الثاني (1197–1250م) – ثم ابنه منفريد من بعده – مركزاً لتعجيم التراث العربي، عين عليه علماء من العرب، وغير العرب، وشجعهم على التأليف، وتعجيم النص الفلسفي، بنقله إلى اللاتينية، وخاصة مؤلفات أرسطو، وأبن رشد، لأن فريدريك كان معجباً بالحضارة العربية،

[1]– راجع: مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، ج3، ص242، ط1، دار ابن الجوزي، القاهرة، 2010.

[2]– زينب الخضري: أثر إبن رشد في فلسفة العصور الوسطى، ص42، دار الثقافة، القاهرة، 1983.

فكان: " يعتقد أن العرب يمتازون بحرية الفكر، وبالعلم العقلاني، ولذا أصبح بلاطه مركزاً للحضارة العربية، وللحرية الدينية"[1].

ثم انتقل النشاط الترجمي، إلى مدن: ساليرنو، وبادوا، ثم روما، بإيطاليا. ففي الفاتيكان بالذات، ترجمت مؤلفات الأسير العربي: الحسن الوزان (...14-1555م)[2]، المدعو ليون الإفريقي – Léo africanus (كما أسماه البابا)، وتناولت الترجمة، خاصة كتابه الموسوعي "وصف إفريقيا" – description de l'Afrique، الذي ألفه في الفاتيكان عام 1526م، ونشر في مدينة البندقية بإيطاليا، عام 1550م، ثم ترجمه جان تامبورال إلى الفرنسية، في مدينة ليون، عام 1555م، كما ترجم إلى اللاتينية في 1556م، والإنجليزية في 1600م، والهولندية عام 1665م، والألمانية في 1805م.

ومن الملاحظ أن كتاب "وصف إفريقيا" للوزان، قد استفاد منه الأوروبيون، مدة ثلاثة قرون، على الأقل، في أخذ المعلومات لإستدمار (استعمار) إفريقيا، بشهادة المستشرق "كرامرز"، الذي يقول:" بقيت أوروبا في عهد إحياء العلوم –renaissance، لا معلومات لديها، مطلقاً، في هذا الصدد، إلا ما استمدته عن المجاهل الإفريقية، من المصدر الإسلامي.

---

[1]– نفسه، ص43.

[2]– ولد الحسن الوزان في غرناطة، ثم هاجرت أسرته قبل سقوطها في 1492م، إلى فاس بالمغرب وعمره أربع سنوات. كان مفكرا وسياسيا، ودهائيا –Diplomate. ساح في إفريقيا الشمالية والوسطى، وعرف مدنها وأنهارها وصحاريها وتركيباتها القبلية. ثم أرسل إلى مصر والأستانة بتركيا، في مهمة سياسية. وأثناء عودته بالباخرة، أسره، بعد تناول طعام العشاء قراصنة الكنيسة في جزيرة جربة بتونس، وحملوه مع غزالة، هدية إلى البابا، الذي أجبره على التنصير. درّس للقساوسة والرهبان اللغة العربية، وألف كتباً من بينها: "وصف إفريقيا"، الذي أمره البابا بتأليفه. ولما قامت ثورة مارتن لوثر على الكنيسة، وهجم الثوار على روما، أنقذه تلميذه الألماني "هانز"، وهربه في سفينة، من نابولي إلى تونس، التي مات فيها عام 1555م.
راجع: تفاصيل حياة الوزان، في رواية الأديب:أمين معلوف، بعنوان "ليون الأفريقي"، ط1، دار الفارابي، بيروت. وط2، المؤسسة الوطنية للاتصال، الجزائر، 2001.

ذلك لأن "وصف إفريقيا"، الذي كتبه المسلم المتنصر: ليون الإفريقيLéo africanus في السنة 1526. كان آنذاك وإلى زمن متأخر، مصدر المعلومات الوحيد، تقريبا"[1].

وقد أشار الوزان في كتابه "وصف إفريقيا"، مرتين إلى "مقدمة ابن خلدون"، المشهورة، ومن ثم عرف الأوروبيون، تراث ابن خلدون لأول مرة، بعد وفاته بمائة وعشرين سنة، وبدأوا في ترجمة المقتطفات والفصول من المقدمة، للاستفادة منها، منذ عصر النهضة في أوربا، في القرن السادس عشر للميلاد. وهو ما يتعارض وآراء ساطع الحصري، وعبد الرحمن بدوي[2]، وغيرهما من الباحثين العرب، الذين زعموا، أن أوروبا، لم تعرف تراث ابن خلدون الفكري، إلا في نهاية القرن السابع عشر، في مؤلف المستشرق الفرنسي: برتليمي دربلو D'herblot (1625–1695م)، الموسوم بـ"المكتبة الشرقية"، الذي تعرض فيه إلى "المقدمة" الخلدونية. والحق أنه لو قرأ الحصري، وبدوي، وغيرهما، كتاب "وصف إفريقيا" للوزان، وكتاب " بدائع السلك، في طبائع الملك"، لقاضي غرناطة: ابن الأزرق الأندلسي (1428–1491م)، الذي شرح فيه مقدمة ابن خلدون –كما أشار محمد البشير الإبراهيمي[3]– لما أصدروا تلك الفروض المجانية، المتهافتة، ولتأكدوا بأن "المقدمة" الخلدونية، عرفتها أوروبا – بطريق الترجمات – في القرن الخامس عشر للميلاد، وليس نهاية القرن السابع عشر.

إن التراث العربي الإسلامي: الديني منه والفكري والعلمي، الذي ترجمته مراكز: طليطلة وبالرمو، وساليرنو، وبادوا، وروما، إلى اللغات الأوروبية، هو (أي التراث) الذي فكك وقوّض أركان الكنيسة المسيحية في روما، بطريق الثورة التي قام بها مارتن لوثر (1483–1546م) في ألمانيا، والتي تعرف بالثورة البروتستانتية، ومنها بدأ عصر النهضة في أوروبا.

---

[1]– جمهرة من المستشرقين، إشراف توماس أرنولد: تراث الإسلام، تعريب: جرجيس فتح الله، (الفصل الذي كتبه كرامرز)، ط3، دار الطليعة، بيروت، 1978.

[2]– راجع: ساطع الحصري: دراسات عن مقدمة ابن خلدون، ط2، القاهرة، 1953. وكذلك عبد الرحمن بدوي: مؤلفات ابن خلدون، دار المعارف، القاهرة، 1962.

[3]– راجع: مقدمة المحقق في الجزء الأول، لكتاب: محمد بن الأزرق الأندلسي: بدائع السلك في طبائع الملك (جزآن)، تحقيق المرحوم محمد بن عبد الكريم، الدار العربية للكتاب، تونس، 1977.

من ذلك يبدو أن عصر النهضة الأوروبية، مدين في ظهوره، إلى ترجمة التراث العربي – الإسلامي- إلى جانب ترجمة التراث اليوناني – إلى اللغات الأوروبية، لأن من نتائج تلك الترجمات – للتراثين – ظهور نظريات فكرية وعلمية. كعقلانية ديكارت، والمذهب الإنساني لإرازم – Erasmus (1469–1536م) ونظريات كوبرنيقوس، وجاليليو، الفلكية، ونظرية العقد الاجتماعي، لهوبز، ولوك، ونظرية القانون الطبيعي، لغروتيوس (1583–1645م)، والنظرية التحررية – Libéralisme، للوك، وما يدعى بعصر الأنوار.

وهكذا يتبين من نتائج ثورة مارتن لوثر، على الكنيسة، وما تلاها من تطورات فكرية وعلمية، في أوروبا، أن الترجمة من لغة إلى أخرى، سلاح فعّال لتغيير واقع الشعوب والأمم، مهما كانت طبيعة ذلك الواقع. ومن ثم فإنه يبدو، أن الترجمة قادرة على أن تصنع الثورات: الدينية، والفكرية، والعلمية، والاجتماعية، والسياسية، وحتى المسلحة أيضاً، في كل مجتمع بشري.

قائمة المراجع:

1. أميرة حلمي مطر: الفكر الإسلامي وتراث اليونان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2010.

2. أمين معلوف، ليون الأفريقي (رواية)، ط1، دار الفارابي، بيروت. وط2، المؤسسة الوطنية للاتصال، الجزائر، 2001.

3. جبران مسعود: المحيط في الأدب، ج2، ط4، دار المكشوف، بيروت، 1963.

4. جمهرة من المستشرقين، إشراف توماس أرنولد: تراث الإسلام، تعريب: جرجيس فتح الله، (الفصل الذي كتبه كرامرز)، ط3، دار الطليعة، بيروت، 1978.

5. جورج سارطون: تاريخ العلم (6أجزاء)، ج3، ترجمة توفيق الطويل (وآخرون)، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1970.

6. خليل داود الزرو: الحياة العلمية في الشام، في القرنين الأول والثاني للهجرة، ط1، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1971.

7. زينب الخضري: أثر ابن رشد في فلسفة العصور الوسطى، دار الثقافة، القاهرة، 1983.

8. ساطع الحصري: دراسات عن مقدمة ابن خلدون، ط2، القاهرة، 1953.

9. عادل العوا: الكلام والفلسفة، ط3، مطبعة جامعة دمشق، 1965/1385.

10. عبد الحميد مدكور: بواكير حركة الترجمة في الإسلام، دار السلام، ط1، القاهرة، 2009/1430.

11. عبد الرحمن بدوي: مؤلفات ابن خلدون، المعارف، القاهرة، 1962.

12. عبد الرحمن بدوي: مؤلفات ابن خلدون، دار المعارف، القاهرة، 1962.

13. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، (3أجزاء)، ط1، دار السلام، القاهرة، 2008/1429.

14. عمر فروخ: الفكر العربي، دار العلم للملايين، بيروت، 1966/1386.

15. كمال اليازجي وأنطون كرم: أعلام الفلسفة العربية، ط3، دار المكشوف، بيروت، 1968.

16. مجلة "العربي"، عدد 675، الكويت، فبراير، 2015/1436.

17. محسن محمد حسين: الإستشراق برؤية شرقية، ط1، شركة بيت الوراق، بغداد، 2011.

18. محمد الغزالي: سر تأخر العرب والمسلمين، دار الهناء، برج الكيفان/ الجزائر(؟).

19. محمد بن الأزرق الأندلسي: بدائع السلك في طبائع الملك (جزآن)، تحقيق المرحوم محمد بن عبد الكريم، الدار العربية للكتاب، تونس، 1977.

20. مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، ج3، ط1، دار ابن الجوزي، القاهرة، 2010.

21. المنجد في الأعلام، ط16، دار المشرق، بيروت، 1988.